



كتبها آرثر سي. بروكس ونشرت في "الأتلانتك" في ٢٥/٧/٢٠٢٤.

في 22 ديسمبر 1849، واجه الكاتب الروسي فيودور دوستوفسكي، البالغ من العمر 28 عاماً، فرقة إعدام بسبب أنشطة مناهضة للحكومة، إلى جانب 21 من رفاقه من جماعة معارضة راديكالية تُسمى "حلقة بيتراشيفسكي". وقد غُصبت أعينهم وُربطوا إلى الأعمدة معاً. كان أصدقاؤه خائفين، لكن دوستوفسكي ظل ثابتاً تماماً. قال بهدوء: "سنكون مع المسيح". وبشكل لا يُصدّق، مُنح الرجال وفقاً لتنفيذ الحكم: قبل إطلاق الرصاص، وصل رسول بقرار إمبراطوري يقضي بتخفيف الحكم إلى فترة مؤقتة في معسكر للعمل القسري.

وبسبب سكونه التام أمام اقتراب موته، قد تفترض أن دوستوفسكي كان شخصاً هادئاً ومتزناً، وربما شديد التدين بلا شك. لكنك ستكون مخطئاً في كل ذلك: كان دوستوفسكي روحاً معذبة، ومتسائلاً فلسفياً لا يقبل شيئاً ويشك في كل شيء، بما في ذلك إيمانه نفسه. ومع ذلك، فإن هذا القلق العميق تجاه الحياة هو بالذات ما دفعه إلى صياغة مخطط للعيش لا يركز على الراحة والمتعة، بل على المعنى. هذا الإحساس بالمعنى منحه ذلك الاتزان الذي أبداه في ما كان يظنه لحظاته الأخيرة القصيرة، وكذلك في نهايته الحقيقية بعد 32 عاماً.

قد يكون فيك شيء من فيودور، في الحقيقة يوجد ذلك في كثيرين منا: قليل من عدم الراحة في جلدنا، شيء من التناقض مع العالم، قابلية سهلة للوقوع في كآبة وجودية. جرعة من فلسفة دوستوفسكي، رغم كونها حاملة وصعبة، قد تكون تماماً ما تحتاجه لتصل إلى شيء من السلام، ليس فقط في لحظائك الأخيرة، بل الآن ودائماً.

على عكس الكثير من مفكري القرن التاسع عشر، لم يطرح دوستوفسكي فلسفته الكبرى في نص واحد مكرس لذلك. بدلاً من ذلك، كشفها في روايات مثل "الإخوة كارامازوف" و"الأبله"، وكذلك في القصص القصيرة والروايات المتوسطة والطروحات المتفرقة. ومن خلال الثيمات المتكررة في كتاباته، يظهر لنا مجموعة من القواعد لعيش حياة ذات معنى.

أولاً



الرحلة هي الوجهة.

في "الأبله"، المنشور عام 1869، يتخيل دوستوفسكي المشاعر التي ربما اختبرها كريستوفر كولومبوس أثناء رحلته عبر الأطلسي: "يمكنك أن تكون متأكداً تماماً من أنه بلغ ذروة سعادته قبل أن يرى العالم الجديد بثلاثة أيام". كيف ذلك؟ "ما قيمة أي اكتشاف مقارنة بالاكشاف الدائم والأبدي للحياة؟"

هنا يشير دوستوفسكي إلى أحد مفارقات الحياة الكبرى: السعادة تتطلب غاية، والغاية تتطلب شعوراً بالاتجاه، والاتجاه يتطلب تحديد أهداف، لكن السعادة لا تتحقق عند الوصول إلى تلك الأهداف. لقد كتبت سابقاً عن "وهم الوصول"، حيث يعتقد الناس أن تحقيق الإنجازات الكبرى سيجلب لهم الكثير من السعادة، ثم يشعرون بخيبة أمل مريرة عندما يكتشفون أن ذلك ليس صحيحاً. بعد إنجاز كبير، يختبر كثير من الناس الاكتئاب. الرضى الحقيقي يأتي من التقدم في الصراع نحو الهدف.

ثانياً

أن تكون حياً يعني أن تعتنق الحرية.

إلى جانب "الجريمة والعقاب"، فإن أشهر أعمال دوستوفسكي هي "الإخوة كارامازوف" (1880). في تلك الرواية قصة مستقلة بعنوان "المفتش الكبير"، عن عودة يسوع إلى الأرض في ذروة محاكم التفتيش الإسبانية. يقبض المفتش الكبير على يسوع بدعوى أن يسوع يعتقد أن البشر يجب أن يكونوا أحراراً ليختاروا ما هو خير. لكن المفتش يعترض: هذا الطريق يؤدي إلى الذنب والقلق والندم والشك. لكي يكون الناس سعداء، كما يقول، عليهم التنازل عن حريتهم واتباع مسار محدد. يقول المفتش ليسوع بنبرة تثير القشعريرة: "لقد صحننا عملاً"، ويحكم عليه بالحرق.

قبل أن تسخر من هذا بوصفه سخرية، فكر في أن المفتش قد يكون محقاً. نعلم أن الحرية غير المحدودة ليست على الإطلاق سر السعادة. وكما يشير علماء النفس منذ وقت طويل، فإن الحرية، خصوصاً في ثقافة فردانية، يمكن أن تتحول بسهولة إلى طغيان، للأسباب نفسها التي يذكرها المفتش. قد يكون سر الرضى أن تفكر بطريقة مألوفة، وتستقر، وتتماهى مع القطيع. يمكنك ببساطة أن تسترخي وتستمتع بمباهج العالم، وتتوقف عن تعذيب نفسك بهذه التفاهات الفلسفية.



من الواضح أن دوستوفسكي لم يوافق على ذلك. لقد كان في صف الاختيار الأخلاقي، في صف يسوع وليس المفتش، حتى عندما يكون الأمر مؤلماً. المزيد عن هذا الألم في القاعدة رقم 4.

ثالثاً

إحذر قصر البلور.

كان دوستوفسكي يعتقد أن ما يقدمه العالم مقابل حريتك ليس إلا زائفاً تماماً، مثل "قصر البلور"، كما سماه في روايته القصيرة "مذكرات من تحت الأرض" (1864). كان عصره، مثل عصرنا، يهيمن عليه يوتوبيا تكنوقراطية، وإيمان شائع بأن تعقيدات الحياة الإنسانية والحب يمكن تبسيطها وحلها عبر علم الدولة وتقنياتها، إذا ما خضع الناس لها. لكن دوستوفسكي رفض هذا المستقبل الموعود "المعد بالكامل والمصاغ بدقة رياضية". فمثل هذه المشاريع، كما رأى، ستخدنا وتنزع عنا إنسانيتنا.

هل كان مخطئاً؟ لقد جلب القرن ونصف القرن الماضيان تقدماً تكنولوجياً حسن من الرفاه البشري في نواح كثيرة، هذا صحيح. لكن العلماء اليوم يحذرون من الآثار اللاإنسانية للاستخدام المفرط للوسائط الرقمية والهواتف الذكية عندما تحل محل التفاعل الإنساني والعلاقات المباشرة. سيقول دوستوفسكي إن مواجهة ألم كونك حياً بالكامل في العالم الحقيقي أفضل بكثير من العيش مخدراً في قصر البلور.

رابعاً

الألم هو المقصد.

عندما يتعلق الأمر بالقلق الوجودي، يذهب دوستوفسكي أبعد من ذلك: حتى لو استطاع إيقافه، يقول إنه لن يفعل، لأن هذا النوع من المعاناة هو الثمن المحتوم والضروري لتحقيق ما نبحث عنه حقاً في الحياة: الحب. في عام 1877، نشر دوستوفسكي قصة قصيرة بعنوان "حلم رجل سخي"، يرى فيها السارد حلمًا حياً عن عالم موازٍ مطابق لعالمنا لكنه بلا معاناة. ما يبدو رائعاً في البداية يصبح مروعاً بسرعة، إذ يتبين أن ذلك العالم لا مكان فيه للحب. وفي تلك اللحظة، يشق السارد للألم المرافق للحب. يقول: "أشتاق، أظمأ، هذه اللحظة بالذات، لأقبل الأرض بالدموع التي



غادرتها، ولا أريد، ولن أقبل حياة من دون هذا!"

قبل أن ترفض فكرة أن الحب يتطلب معاناة، فكر في العذاب الذي ربما شعرت به في المراحل الأولى من آخر علاقة غرامية بدأت بها. وإذا كان ذلك بعيداً جداً لتذكره، فاعلم أن علماء الأعصاب وجدوا أننا نعكس آلام أحبائنا (لكن ليس الغرباء). نحن نشعر تقريباً بألمهم بشكل حرفي: رؤية صورة لحبيب يتألم تنشط القشرة الحزامية الأمامية والجزيرة، وهما منطقتان تعالجان الألم العقلي.

خامساً

ارفع نظرك.

قد تبدو الدروس المذكورة حتى الآن صعبة جداً لأن نستوعبها ضمن الظروف الحسية لتجربتنا اليومية. وإدراكاً لهذا، يرى دوستوفسكي أنه يجب علينا أن ننصت إلى البعد الغيبي في الوجود الإنساني، لأننا بذلك وحده نستطيع إدراك ما نريده حقاً في صراع الحياة. يقول في "الإخوة كارامازوف": "طالما بقي الإنسان حراً، فهو لا يسعى بشيء مثلما يسعى إلى أن يجد شخصاً يعبد". وقد كان محقاً: فقد خلص باحثون في جامعة أكسفورد عام 2011 إلى أن الإيمان بإله أو آلهة وبحياة بعد الموت أمر متأصل في الطبيعة البشرية. وعادة، نعتقد أيضاً أن العقل والجسد منفصلان، وهو ما يؤدي إلى الاعتقاد الواسع بالروح. بناء على هذا وغيره، يمكن القول إن لدى الإنسان "غريزة دينية".

وإذا كنت تشك في الغيبي؟ أهلاً بك في النادي، يا رفيق التيه. الإيمان، كما يقول دوستوفسكي، هو مسألة التزام، لا شعور أو منطق. كانت هذه هي نقطة دوستوفسكي المركزية بشأن معتقداته المسيحية عندما كتب في آخر دفتر احتفظ به: "أؤمن بالمسيح وأعترف به لا مثل أي طفل، إن تهليلي مر عبر فرن هائل من الشك". هذا التصريح، الذي قاله قرب نهاية حياته، يعيدنا إلى مشهد شبابه: ما اعتقد أنه كلماته الأخيرة، أمام فرقة الإعدام، كان تعبيراً عن معتقدات اختارها، لا مجرد انعكاس لشعور لحظي.

إذا كان لديك روح مضطربة مثل دوستوفسكي، يمكنك أن تستفيد بمحاولة تبني طريقه. فيما يلي خمسة قرارات، جربتها بنفسني، وقد ترغب في تبنيها:



1. أهدافي في الحياة مجرد نوايا، لا ارتباطات. سأركز على الصراع، على الرحلة.
2. التوافق في الفكر والفعل أكثر راحة من الحرية. لكنني سأشك في كل شيء، وسأفكر وأتصرف بنفسي.
3. سأبتعد عن أفخاخ التقنية المخدرة التي تسرق وقتي وتركيزي مقابل حريتي في التفكير.
4. سأعتنق الألم الذي تجلبه الحرية والفردانية، لأنني أطالب بحقي في اختبار الحب.
5. العالم كما أراه ليس كل ما يوجد، ولا يفسر كل الأشياء. سأعتنق المتعالي وأنا أسعى لفهمه.

هذه هي الصيغة التي عاش بها دوستويفسكي حتى النهاية. فعندما مات، عن 59 عاماً بسبب نزيف رئوي، كان محاطاً بزوجه أنا وأطفاله. وعلى فراش الموت، قرأ من إنجيل متى قصة معمودية يسوع: حيث يعترض يوحنا في البداية قائلاً إنه هو من يجب أن يُعمّد، لا العكس، لكن يسوع يجيبه: "اسمح الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نتمم كل بر". فيعمده يوحنا، ويتلقى يسوع بركة الله.

بعد هذا القراءة، عن الخضوع الكامل للإنسان للإله، نظر دوستويفسكي إلى زوجته، التي رأى فيها، عبر حياته الأرضية، مثل ذلك الحب السماوي، وقال: "لقد أحببتك دائماً بجنون، ولم أحنك قط، ولا حتى في أفكاري". وبعد ذلك، أسلم الروح.

الكاتب: رمان الثقافية